﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من تمامِ تصوُّرِ مناسبةِ العذابِ لسُوءِ صنيعِهم ترديةُ حالِهم

لَمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه استأصلَ الظّالمين بنزول عذابِه بهم، ذكرَ هنا ما يدلُّ على كمالِ قدرتِه، وتوحيدِه[1]، وذلك أنَّه لمّا قدَّمَ التَّنبيهَ بإتيانِ مُطلقِ العذابِ في مُطلقِ الأحوالِ، وأتبعَه أنَّ أخْذَ الأمم كان بغتةً، أعقبَه التَّنبيهَ بعذابٍ خاصٍّ يهزُّ تَصَوُّرُ شناعتِه الأركانَ؛ فإنَّه لا أشنعَ حالًا من أصمَّ أعمى مجنونٍ[2] مسلوبِ العقل والتَّمييز.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: مِن (رأى) العِلميَّة التي ضُمِّنتْ معنى: أخبروني، وفي (أَرَأَيْتَ) معنيان، أحدُهما: أن يسأل الرجلُ: أرأيت زيدًا؟ أي: أعلمتَ، وثانيهما: أن تقول: أرأيتَ، بمعنى: أَخْبِرْني[3]، وهي في الآية بمعنى: الإخبار، فقولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني[4].

2) ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: الأَخْذُ: حوزُ الشَّيء وتحصيلُه[5]، "وأَخَذَ اللّهُ، معناه: أذهبَه، وانتزعَه بقُدرته"[6]، ﴿أَخَذَ ٱللَّـهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ "أي: أصمَّكم وأعْماكم[7].

3) ﴿وَخَتَمَ﴾: (ختم) أصلٌ يدلُّ على بلوغِ آخرِ الشَّيء، خَتَمْتُه:

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/117.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/615، 617.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/145.
(5) الراغب، المفردات: (أخذ).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 4/144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/233 - 234.

بلغتُ آخرَه، ومنه الختمُ: الطَّبعُ على الشَّيء؛ لأنَّه لا يكون إلّا بعد بلوغ آخرِه[1]، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، معناه: "وطبعَ على قلوبِهم، فلم يعقلوا الهُدى"[2].

4) ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾: الصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، وتَصْريفُ الرّياح: هو صرفُها من حال إلى حالٍ، و"تصريفُ الآياتِ: هو نصبُ العِبَرِ، ومجيءُ آياتِ القرآن بالإنذارِ والإعذارِ والبِشارةِ ونحوِه"[3].

5) ﴿يَصْدِفُونَ﴾: (صَدَفَ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ، صَدَفَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا مالَ عَنْهُ ووَلَّى ذاهِبًا[4]، وصَدَفَ عنه: عدلَ، وأعرضَ إعراضًا شديدًا[5]، ومعنى قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي: "يُعرضون عنِ الآيات بعد ظهورِها"[6]، فلا يَعتبِرون"[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تهافتُ مآخذِ الإعراضِ عنِ اللهِ بعد تواترِ الآياتِ البيِّناتِ

في هذه الآيةِ يقولُ اللّه سبحانه لنبيِّه ﷺ: قلْ لهؤلاء المشركين، أخبروني ماذا أنتم فاعلونَ إنْ أخذَ اللّه سمعَكم وأبصارَكم، وختمَ على قلوبِكم، إذْ هو الذي وهبَها لكم؟ فإنَّه ليس هناك إلهٌ غيرُ اللّه تعالى يردُّ إليكم تلك الحواسَّ، ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه يُصرِّفُ لهمُ الآياتِ، وينوِّعُها بألوانٍ مختلفةٍ وعلى أساليبَ متعدِّدةٍ في غاية الوضوحِ والبيانِ؛ لأنَّها تدلُّ على توحيدِه وصحَّةِ نُبوّةِ نَبيِّه ﷺ ثمّ هم مع ذلك يُعرضون عمّا وضحَ لهم، وظهرَ عندهم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ختم).
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والواحدي، البسيط: 8/149.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدف).
(5) الراغب، المفردات: (صدف)، وابن سيده، المخصص: 3/349.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/30.
(8) الواحدي، البسيط: 8/150، والحجازي، التفسير الواضح: 7/84.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بفعلِ القول:

الفصلُ بالقول أمـارةُ العنايةِ بالإبلاغ

صُدِّرتِ الآيةُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بقوله: ﴿قُلْ﴾؛ للاهتمام بإبلاغِه وتلقينًا له ﷺ وإلّا فإنَّ مُعظمَ ما في القرآن مأمورٌ الرَّسولُ ﷺ بأن يقولَه لهم[1].

دَلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

عـذابُـهـم واقـعٌ مُتحقَّقٌ مُتَعجَّبٌ منه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بجملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ لأنَّها أسلوبٌ قرآنيٌّ يُفتتح بمثلِه الكلامُ الذي يرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهمزةُ الاستفهام فيه للتَّقرير، وهي تجمعُ بين الاستفهامِ والتَّعجُّبِ[2].

سرُّ تركِ كافِ الخطابِ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

تـرديـدُ زيـادةِ الكافِ أو حذفِها لعِظَمِ التَّهديد وجودًا وعدمًا

لم تُذْكَرْ كافُ الخِطابِ في الفعل ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ كما ذُكرت سابقًا في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾؛ "لأنَّ التَّهديدَ هناك أعظمُ، وذلك لأنَّ المتوعَّدَ به عذابُ الله، وهو أشدُّ من أخْذِ السّمعِ والأبصارِ، فناسبَ التَّأكيدُ بالإتيان بكاف الخطاب"[3]، ولمّا كان التَّهديدُ أخفَّ من ذلك لم يؤكَّد به، بل اكتُفيَ بخطاب الضَّمير، فقيل: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾[4].

مطلعُ الخطابِ مُؤذِنٌ بسوقِ ما يدلُّ على المبالغةِ

ووجهُ مجيءِ الكاف - أيضًا - أنَّه لما كانت الأولى مبدأَ الخطاب، بولغ في الخطاب فيها، والثانيةُ: اكتفى فيها بالخطاب الأول، فلم يحتج إلى المبالغة، والثّانية: وقع الفصل بينها وبين الأول، وفيه شبه طول؛ فَأُعيدتِ الكافُ فيها للخطاب[5].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ(إن) بدلًا من (إذا):

في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ عبَّر بـ ﴿إِنْ﴾ التي تفيدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، 240.
(2) السّمين، الدر المصون: 4/615.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/636.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.

الشَّكَّ في الوقوعِ أو قلَّته، بدلًا من (إذا) التي تفيدُ تحقُّقَ الوقوع؛ لأنَّ مساقَ الآية للتَّرهيب والتَّخويفِ حتى يُقلعوا عمّا هم فيه منَ الشِّركِ وعبادةِ الأوثانِ، وممّا يؤكِّدُ ذلك أنَّه تحذيرٌ وترهيبٌ، وأنَّه لو سلَبَ السَّمعَ والبصرَ، وختمَ على القلوبِ؛ فلن يكونوا مؤهَّلين للتَّغيير عمّا هم فيه؛ لأنَّهم سُلبوا وسائلَ الإدراكِ.

التَّرهيبُ والتَّخويفُ لقصد الإمهال دفعًا لمفسدةِ الوقوعِ والإهمالِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالأخذِ دونَ السَّلْبِ:

عبَّر القرآنُ عن سلْبِهم تلك الحواسَّ بالأخذِ، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾، والمعنى: "أصمَّكم وأعماكم، فأخْذُهما مجازٌ عنِ سلْب الحواسِّ؛ لأنَّ سلبَ الحواسِّ يلزمُ منه الصَّممُ والعَمى[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّه عبَّر بالأخذ دون السَّلب؛ لبيان أنَّها ملكٌ له تعالى، أو هي محضُ إنعامٍ منه ﷻ، قادرٌ على أخذِها، فهي ليست ملكًا لكم، فيكونُ سلبًا.

ما خلقَهُ اللهُ تعالى محضُ إنعامٍ منه، وله سلبُهُ أنَّى شاء

ويُزاد على ذلك أنَّه عبَّر بالأخذ؛ لأنَّه يدلُّ على العقابِ والمُجازاةِ؛ فهم لم يُقابلوا نعمةَ الحواسِّ التي منحهم اللهُ إيّاها بالشُّكرِ والإيمانِ بخالقِها؛ فهدَّدهم ربُّنا بسلْبِها، وأكَّد ذلك التَّعبيرُ بفعل (الأخذ) الذي يُستخدم غالبًا في القرآن في مَقام العقوبةِ.

لما جَحدُوا إنعامَ اللهِ عليهم بهذه الحواسِّ هدَّدهم بسلْبِها

نكتةُ إسنادِ الأخذِ للسَّمع والبصرِ دونَ القلبِ:

أُسْنِدَ الأخذُ إلى السَّمعِ والبصرِ دونَ القلبِ؛ لأنَّ القلبَ مناطُ التَّكليفِ، فلو أُخذَ لسقطَ التَّكليفُ، والعقلُ محلُّه القلبُ يُحجبُ ويُستر، ولا يؤخذُ؛ أمّا السَّمعُ والبصرُ؛ فيكونُ أخْذُهما بعدم السَّماعِ والإبصارِ.

تعليقُ الأخذِ بالسَّمعِ والبصرِ صونٌ لمناطِ التَّكليفِ

دَلالةُ إسنادِ الختْمِ على القلوبِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالختْمِ في قولِه تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ ولم يقلْ: (وأخذ عقولكم)؛ لأنَّ العقلَ شرطٌ في التَّكليف، فلو أخذَ

شرطُ التَّكليفِ سلامةُ العقلِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/233 - 234.

العقلَ؛ لسقطَ التَّكليفُ[1]، "والقلوبُ مرادٌ بها العقولُ في كلام العرب؛ لأنَّ القلبَ سببُ إمدادِ العقل بقوَّةِ الإدراكِ"[2].

السِّرُّ في إفراد السَّمعِ وجمْعِ الأبصار:

النَّاسُ في السَّمع متساوُون، وفي الإدراكِ متفاوِتون

جاء السَّمعُ مفردًا، والأبصارُ جمعًا في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾؛ لأنَّه مصدرٌ مفردٌ يدلُّ على جمعٍ[3]، والمصدرُ يقعُ للقليلِ والكثيرِ[4]، فجاء مفردًا لقلَّة المُفاوتةِ فيه؛ لأنَّ السَّمعَ أعظمُ الطُّرق للإدراك[5].

ولأنَّ القلوبَ متفاوتةٌ في إدراكِ الأدلَّةِ التي تَعرِضُ لها، وكذا الأبصارُ متفاوتةٌ في التَّعلُّقِ بالمرئياتِ التي فيها أدلَّةُ الوحدانيةِ؛ فلكلٍّ بصرٍ حظُّه في النَّظر وأخذِ العِبرة والعِظة، أمّا الأسماعُ؛ فإنَّها تتعلَّقُ بما يُلقَى إليها منَ القرآن؛ فالنّاسُ إذا سمعتِ القرآنَ، سمعوه سماعًا واحدًا متساويًا، وإنَّما يتفاوتون في الإدراك والتَّدبُّرِ[6].

علَّةُ تقديمِ السَّمعِ على البَصَرِ:

السَّمعُ أشرفُ لكونه سبيلَ تأثيرِ القلب، ولأوَّليَّتِهِ وتقدُّمِ مركزه، وتعلُّقِه بالغائب

النّاظرُ في آيات القرآنِ الكريم، يجدُ أنَّ تقديمَ السَّمع على البصر هو الغالبُ فيها، وذلك لأنَّ السَّمع أوَّلُ عُضوٍ يُؤدّي وظيفتَه في الدُّنيا، وهذا واضحٌ بعد ولادةِ الطّفلِ، ولأنَّ العينَ تحتاجُ إلى النّورِ لكي تُؤدّي وظيفتَها، بخلاف الأُذن فتُؤدّي وظيفتَها دون عائقٍ في اللَّيل والنَّهار، وفي الظَّلامِ والنّورِ على حدٍّ سواءٍ، ولأنَّ مركزَ السَّمع يتقدَّمُ على مركزِ البصر؛ كما أثبت ذلك علماءُ التَّشريحِ، وهذا إعجازٌ علميٌّ لم يعرفْه العلماءُ إلّا حديثًا[7].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/156.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/234.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/427.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/190.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/256.
(7) عادل الصعدي، الإعجاز العلمي في تقديم السّمع على البصر. شبكة المعلومات الدولية.

ويُزادُ على ذلك أنَّ السّمعَ يتعلَّقُ بآيات القرآنِ، فهو مُوردُها القلبَ، فالاستجابةُ للقرآن تقعُ بالسَّمع: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[1]، وقد أحسن أبو السُّعود بقولِه: "وأمّا تقديمُ السَّمع على الأبصار؛ فلأنَّه موردُ الآياتِ القرآنية"[2]، والبصرُ يتعلّقُ بالآيات الكونيّة المُشاهَدةِ، وبعضُ المفسِّرين ذهب إلى تفضيل السَّمع على البصر، لتقدُّمِه عليه في أكثرَ من موضعٍ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: 78][3].

ومنْ عِلل تقديمِ السَّمع التّنبيهُ على أنَّه أشرفُ من حيث تعلُّقه بالغائب، والبصيرُ لا يرى إلا الحاضرَ[4].

نكتةُ إيثارِ الختمِ على الطّبْعِ:

الطَّبع مظنَّةٌ لغلقِ بابِ العملِ، وفي الختمِ بريقُ أملٍ

اختارَ الختمَ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ دون الطّبع؛ لأنَّه المناسبُ لسياقِ الآيةِ في التَّخويف والتَّهديد؛ لذا ناسبَ أن يهدِّدَهم بالختْمِ دون الطّبْعِ؛ لأنَّ الختمَ لا يدلُّ على المنعِ على وجه الثُّبوتِ، فالأصلُ في الخَتْمِ ختمُ الكتاب؛ لِأَنَّهُ يَقع بعد الفَراغ مِنْهُ، ومِنْه قَوْلُه تَعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: 65] دالًّا على المنعِ، وقَولُه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7] ليس دالًّا على المنع، لكنَّه ذمٌّ بِأَنَّها كالممنوعةِ من قَبول الحقِّ[5]، وأمّا الطَّبْعُ فهو أثرٌ يثبتُ في المطبوع، ويلْزمهُ، فَهوَ يُفيدُ من معنى الثَّبات واللُّزوم ما لا يُفيدُه الخَتْمُ، ولِهَذا قيلَ: طُبِعَ الدِّرْهَم طبعًا، وهوَ الأَثرُ الَّذي يُطبع عليه، فلا يَزول عَنهُ، كَذَلِك - أَيْضًا - قيل: طبعُ الإنسان؛ لِأَنَّهُ ثابتٌ غيرُ زائل"[6]، فهدَّدَهم بالختْمِ؛ لأنَّه يريدُ أن يوقظَ الإيمانَ فيهم، ولو

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/189.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/155.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 72.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 73.

عبَّر بالطَّبع؛ فلن يكونَ لدعوتِهم وتهديدِهم وجهٌ، فالختمُ مناسبٌ لهذا الموضع دونَ الطَّبعِ الدّالِّ على اليأس من إيمانهم.

بيانُ المُتشابهِ في تقديمِ الختمِ في سورتَي البقرةِ والأنعامِ:

سوقُ مقامِ التَّهديدِ والتَّخويفِ بأخذِ ذرائعِ الإيمانِ الآيلةِ إلى تعطيلِ عملِ القلبِ

قدَّمَ الختمَ على القلوب في سورة البقرة على السَّمع والأبصار في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: 7]، وأخَّرَه في سورة الأنعام عن أخْذِ السَّمع والأبصار، كما في الآية التي معنا، وذلك لاختلاف السّياق؛ ففي سورة البقرة يتحدَّثُ القرآنُ عنِ الكافرين الذين لا يؤمنون مع الإنذار وعدمِه، فبيَّن السَّببَ في ذلك؛ لأنَّ الله ختمَ على قلوبِهم فلا ينفذُ إليها الإيمانُ؛ لأنَّ القلبَ هو وسيلةُ الإدراك، وهو محلُّ الإيمان، والإيمانُ عملٌ قلبيٌّ، فناسبَ تقديمُ الختم على القلب لذلك، بخلاف موضعِ سورة الأنعام؛ فالمَقام فيها تهديدٌ وتخويفٌ، والسَّمعُ والبصرُ هما آلتا توصيلِ الأدلَّةِ إلى الإيمان؛ لذلك هدَّدَ بأخْذِ آلتَي التَّوصيلِ، وإذا سُلبتِ الآلةُ؛ تعطَّلَ عملُ القلبِ.

علَّةُ إفرادِ الضَّميرِ ومرجعُهُ جمعٌ:

إجراءُ الضَّميرِ مُجرى اسمِ الإشارةِ في استعمالِهِ لمُتعدِّدٍ

أفردَ الضَّميرَ، والمتقدِّمُ جمعٌ، وهو قولُه: ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فلم يقلْ: (بهنّ)، وإنَّما قال جلَّ شأنُه: ﴿يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ "إجراءً للضَّمير مجرى اسم الإشارةِ، أي: بذلك"[1]، فالضَّميرُ مستعارٌ لاسم الإشارةِ المفردِ؛ لأنَّ اسمَ الإشارة كثُرَ أن يُشارَ به إلى أشياءَ عدَّةٍ[2].

ويجوز أن تكون الهاء عائدةً على السَّمع؛ فتكونَ موحَّدةً لتوحيد السَّمع[3]، وبعضُ المُفسِّرين جعلَه عائدًا على معنى مقدَّرٍ مدلولٍ عليه

(1) السيوطي، قطف الأزهار: 2/879، والزمخشري، الكشاف: 2/24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/144.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/197.

منَ الكلام السّابقِ، فهو يعودُ على معنى الفعل، والتَّقديرُ: مَنْ إلهٌ غيرُ اللّه يأتيكم بما أخذ منكم؟ أي: المأخوذُ المدلولُ عليه بـ (أخذ)[1].

علَّةُ تخصيصِ ذكْرِ السَّمعِ والبصرِ والقلبِ:

تعليقُ التَّهديدِ والتَّخويفِ بأشرفِ متعلَّقاتِ العقلِ تحريضًا على النَّظر

ذكرَ الأعضاءَ الثَّلاثةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ دون غيرِها؛ لأنَّها أشرفُ أعضاءِ الإنسان[2]، "فإذا تعطَّلتِ اختلَّ نظامُ الإنسان، وفسدَ أمرُه، وبطُلتْ مصالحُه في الدّين والدُّنيا"[3]، ويُزادُ على ذلك أنَّها الحواسُّ والأعضاءُ التي يكونُ بها البحثُ والنَّظرُ ومعرفةُ الحقِّ، فلمّا عطَّلوها؛ هدَّدَهم بأخذِها على الخصوصِ، والكلامُ تهديدٌ لتخويفِهم، واختير فيه التَّهديدُ بانتزاعِ سمعِهم وأبصارِهم وسلْبِ الإدراك من قلوبِهم؛ لأنَّهم لم يشكروا نعمةَ هذه المواهبِ، ولم ينتفعوا بها[4].

سِرُّ إيثارِ النَّفيِ والإنكارِ بالاستفهام دونَ النَّفيِ الصَّريحِ:

الاستفهامُ وسيلةٌ لإقامةِ الحُجَّةِ البالغةِ على بُطلان الشِّرك

آثرَ أن ينفيَ وجودَ إلهٍ سواهُ تعالى - يُعيد لهم المسلوبَ منهم - بالاستفهام المجازيِّ دون النَّفيِ الحقيقيِّ، فقالَ: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾، ولم يقلْ: (ما من إله يأتيكم به)؛ لأنَّه أرادَ إشراكَهم بتقرير ذلك، إجبارًا لهم على النَّظرِ في جوابِه، فيوقنوا أنَّه لا إله غيرُ اللّه يأتيهم بذلك[5]، فهو "استفهامٌ معناه: توقيفُهم على أنه ليس ثَمَّ سواه، فالتَّعلُّقُ بغيره لا ينفعُ"[6]، وفيه توبيخٌ لهم[7].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ (يأتي) دون (يردّ):

لا شيءَ يستحيلُ على اللهِ فعلُه أو يصْعُبُ بَعثُهُ من جديدٍ

آثرَ الفعلَ (يأتي به) دون (يردُّه، أو يرجعه) في قولِه جلَّ شأنُه:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536، والنيسابوري، إيجاز البيان: 1/295.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/80، والخازن، لباب التأويل: 2/113.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/113، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/362.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/234.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/320.
(7) الشّوكاني، فتح القدير: 2/134.

﴿يَأۡتِيكُم بِهِۦۗ﴾: للإشارة إلى أنه يكونُ كالجديد"[1]؛ لأنَّ الإرجاعَ والرَّدَّ يكونُ للشَّيءِ ذاتِه، والإتيانُ مطلقٌ، فعبَّر به إيحاءً إلى أنَّه أراد سمعًا وبصرًا جديدًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ بالأخذِ أخذُ العضوِ كلِّه، وفيه إشارةٌ إلى سهولة الإتيان، وأنَّه أهونُ عليه؛ فلا يُتصوَّرُ صعوبةُ فعلِ ذلك.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡتِيكُم﴾:

لا يُعجِزُ إتيانَ اللهِ تعالى زمنٌ أو هيئةٌ، ونفيُ ذلك عمَّن سواهُ

عبَّر بالفعل المضارع الذي يُفيد التَّجدُّدَ والحدوثَ لإثبات قدرتِه ﷻ على الإتيان بالمسلوب مِنَ الحواسِّ في أيِّ زمنٍ وعلى أيِّ هيئةٍ، وفيه توبيخٌ للمشركين لعجزِ أصنامِهم عن فعلِ ذلك.

نكتةُ الخطابِ بفعْلِ الأمرِ ﴿ٱنظُرۡ﴾:

التَّشنيعُ على المُعرضِين عنِ القطعيَّات، والتَّعجيبُ من عدمِ تأثُّرِهم بالآيات

الخطابُ في قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ خطابٌ عامٌّ لكلِّ سامعٍ، إعلامًا بأنَّ تصريفَ الآيات لكثرتِه يُبصرُه كلُّ أحد، فكلُّ سامعٍ يبصرُ تلك الآياتِ التي تنوَّعت، وكثرتْ، والمرادُ بيانُ حالِ المُشركين بأنَّهم لا تؤثِّر الحجَّةُ فيهم مهما تكنْ واضحةً[2].

والغرضُ منه التَّعجيبُ من عدمِ تأثُّرِهم بما رأَوْا، وعاينوا مِنَ الآياتِ الباهراتِ[3]، و"إنَّ كلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ معطيةٌ معنى التَّعجُّبِ، نحو: (ألم تر) ؟ و(أرأيت) ؟ تَعَجُّبُ السّامعِ من شدَّةِ شكيمةِ أولئك المشركين، وإصرارِهم على العنادِ، ونفورِهم عنِ الحقِّ، بعد تكرير الآياتِ المُنذرةِ المخوِّفةِ"[4].

بلاغةُ الفصلِ في جملة: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

دوامُ المكابرةِ مع ظهورِ البرهانِ محلُّ عجبٍ

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2504.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2504.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/145، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/362.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/90.

ابتدائيًّا؛ فكانت بمنزلةِ التَّذييلِ للآياتِ السّابقةِ؛ لأنَّه سبحانه لمّا غمرَهم بالأدلَّةِ على الوحدانيةِ وصدقِ الرّسولِ ﷺ وأبطلَ شُبَههم، جاءت هذه الجملةُ للتَّعجُّبِ مِن استمرارِهم في الإعراضِ والمكابرةِ، مع قوَّة الأدلَّةِ[1].

سرُّ اختيارِ النَّظر دونَ الرُّؤيةِ:

تنزيلُ المعقولِ منزلةَ المنظورِ في مظنَّة التَّأثيرِ

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ تنزيلًا للأمر المعقولِ منزلةَ المُشاهَدِ، وهو تصريفُ الآيات مع الإعراضِ عنها كأنَّ النّاظرَ يستطيعُ أن يراها[2].

الأمـرُ بالنَّـظرِ أمـارةٌ بـلـوغِ الآيـاتِ مَنـصَّـةَ البيانِ

وجَّهَ الأمرَ بالنَّظرِ إلى تصريف الآيات دونَ اسم الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فلم يقلْ: (كذلك نصرّف الآيات) للدَّلالةِ على أنَّ تصريفَ الآياتِ وتنويعَها لإظهار الحقِّ ظاهرٌ بحيث يمكنُ رؤيتُه، "حتى إنَّ النّاظرَ يستطيعُ أن يراها"[3]، ولمّا بلغت هذه الآياتُ مِنَ الإبلاغ في البيان أعلى المقامات، نبَّه على ذلك بالأمر بالنَّظر[4].

دَلالةُ الأمرِ بالنَّظرِ إلى كيفيَّةِ التَّصريفِ:

فـعـلُ الـنَّـظـرِ تـأكـيـدٌ لـظـهـورِ التَّصريفِ وكثرته

الأمْرُ بالنَّظر في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ متَّجهٌ إلى تصريف الآيات، تأكيدًا لكثرتها؛ إذِ الكثرةُ مدلولٌ عليها من صيغة تشديدِ الفعلِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ﴾، والتَّصريفُ ذاتُه يدلُّ على الكثرةِ، فالفعلُ ﴿ٱنظُرۡ﴾ تأكيدٌ لظهورِ هذا التَّصريفِ وكثرته، فتصريفُها تكرارُها وتنوُّعُها، فتأتي مرَّةً بالنِّقمةِ ومرَّةً بالنِّعمةِ، ومرَّةً بالتَّرغيبِ ومرَّةً بالتَّرهيبِ، فتُتابعُ لهم الحُججُ، وتُضربُ لهم الأمثالُ، للدَّلالةِ على صحَّةِ توحيدِه تعالى[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.

إيـثـارُ صِيـغـةِ التَّعظيمِ لإظهارِ الـعـظَـمـةِ في التَّصريفِ

آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّعظيمِ في الفعلِ المضارعِ: ﴿نُصَرِّفُ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ لإظهارِ العظَمةِ في التَّصريفِ، والمعنى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ بما لنا مِنَ العظمَةِ[1].

فائدةُ تصريفِ الآياتِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

تـرتـيـبُ حُـجَـجِ الـمـنـقـولِ رعـيًـا لـتـفـاوتِ مَـدارِكِ العُقُول

آثرَ ﷺ أنْ تُساقَ الآياتُ بأساليبَ متفاوتةٍ، وبأنواعٍ مختلفةٍ، والغايةُ من ذلك لتُناسبَ أفهامَ النّاس، عامِّها وخاصِّها، بحيث تستوعبُ الإحاطةَ بالأفهام على اختلافِ مداركِ العقولِ[2]، وهذه ألطافٌ ورحمةٌ منَ اللّه تعالى بخَلْقِه.

غرضُ تعريفِ الآياتِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

إحـالـةُ الآيـاتِ على المعهوداتِ الـبـيـان، يـؤذِنُ بالإذعانِ وهجْرِ الكفرانِ

جاء لفظُ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ معرَّفًا بالألف واللّام، التي تدلُّ على العَهْدِ، إشارةً إلى الآياتِ المكرَّرةِ من أوَّل السّورة[3]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ معروفةٌ ومعهودةٌ لهم؛ فكان عليهم أن يستحضروها ويوظِّفوها لإثباتِ الوحدانيةِ بدلًا منَ الشِّرك، وفيه تعليمٌ للدّاعيةِ عند المُحاجَّةِ أن يأتيَ بآياتٍ معروفةٍ مناسبةٍ لحال المدْعو.

دَلالةُ عطفِ قولِه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾:

سـوقُ الأدلَّـةِ يقضي العجبَ، واستمرارُ المكابرةِ أعجبُ

عُطفتْ هذه الجُمْلةُ على ما قبْلَها بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيدُ التَّرتيبَ الرُّتبي لما بينهما مِنَ الاتِّصال؛ لأنَّها أدْخلُ في الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو هنا التَّعجيبُ من قوَّة الأدلَّةِ، والأعجبُ منها استمرارُ الإعراضِ والمكابرةِ[4].

إيثارُ التَّعبيرِ بحرف العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بحرف العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالِّ على التَّعقيبِ والتَّراخي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 6/90.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

المُشعرِ بطولِ الزَّمان، ولم يقلْ: (ولكنّهم يعرضون) وغيرَه؛ إشعارًا بكثرة الآياتِ التي مرَّت عليهم وطولِ زمانِها، بحيث إنَّها جديرةٌ بأن توقِظَ فيهم وازعَ الإيمان، ولكنَّهم مع ذلك أعرضوا، وفيه بيانٌ لصلابةِ كفرهم وغِلظِ قلوبهم، "ولمّا كان الإعراضُ عن مثل هذا في غاية البُعدِ عبَّر بأداة التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ هُمْ﴾، أي: بعد هذا البيانِ بصميم ضمائرِهم ﴿يَصْدِفُونَ﴾"[1]، فـ ﴿ثُمَّ﴾ لبيان بُعْدِ إعراضِهم عنِ الآيات بعد تصريفِها على نمَطٍ موجبٍ للإقبالِ عليها[2].

طـــولُ زمـــانِ الآيـاتِ وكثرتُها جديرٌ بأن يُوقِظَ في الكفر وازعَ الإيمان

بلاغةُ التَّعبيرِ عن إعراضِهم بالجملةِ الاسميَّةِ:

آثرَ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ لبيان قوَّةِ إعراضِهم، وهذا واضحٌ في تقديم المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يَصْدِفُونَ﴾ لتقويةِ الحُكم[3]، وهذا يناسب تصديرَ الجملةِ بالأمر إلى النَّظرِ تعجيبًا من حالِهم وكثرةِ الآيات المُتصرِّفة، فلو لم يكن إعراضُهم متَّصفًا بالثَّبات والقوَّة؛ لأبصروا ما تدلُّ عليه تلك الآياتُ.

شـدَّةُ الإعـراضِ عـنِ الآيـاتِ مِن طباعِ الكافرين

نكتةُ الإخبارِ بالمضارع ﴿يَصْدِفُونَ﴾:

جاء الخبرُ في الجملةِ الاسميةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ فعلًا لبيانِ تجدُّدِ إعراضِهم ودوامِه[4]، وهذا الدَّوامُ يناسبُ تصريفَ الآيات، فكلَّما تجدَّدت الآياتُ؛ قابلوها بالإعراض، فكان إعراضُهم متجدِّدًا على الدَّوام.

قـابـلَ الـكُـفّـارُ تَـجَـدُّدَ الآيـاتِ بدوامِ الإعراضِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يُعرِضون) و (يَصْدِفون):

الصَّدْفُ: إعراضٌ مخصوصٌ بالشِّدَّةِ، يقال صدَف عَنهُ: أعرضَ

الصَّدفُ إعراضٌ مـخـصـوصٌ بالشِّدَّةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/257، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/156.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/321، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505، والآلوسي، روح المعاني: 4/145.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

إعراضًا شديدًا[1]، ففيه معنى الشِّدَّةِ في الميلِ والإعراضِ، وممّا يُعبِّرُ عن تلك الشِّدَّة حرفُ الصّاد، وبالنَّظر إلى ثُنائيَّةِ (الصّاد والدّال) وما يُثلِّثُهما، نجدُ أنَّ تلك المُفرداتِ كلَّها تتَّصفُ بالشِّدَّةِ والقوَّة، قولُه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾: "يُعرضون عنِ الآيات بعدَ ظهورِها"[2]، والإعراضُ بعد ظهورِ الآياتِ يدلُّ على شدَّة الميلِ، فناسبَه التَّعبيرُ بـ (صدف)، فمعنى: ﴿يَصۡدِفُونَ﴾: يُعرضون إعراضًا شديدًا[3].

وعلى ذلك، فالصَّدْفُ هو المناسبُ لهذا السّياق؛ لما يحملُه من معنى الشِّدَّةِ في الإعراض، فهو إعراضٌ وزيادةٌ؛ لأنَّه لا يقفُ عند إعراضِه هو عنِ الآيات بل يتعدَّى إلى صدْفِ النّاس عنها، بدليلِ قولِه تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ [الأنعام: 157].

(1) الراغب، المفردات: (صدف).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»